الحياة الفكرية بليبيا من خلال الرحاله العرب في العصر الحديث (1711م-1911م)

د. على مفتاح إبراهيم منصور*

كان الموقع ليبيا الجغرافي على ساحل البحر المتوسط وامتداده جنوبا نحو الصحراء دورا بارزا في أحداث منطقة الشمال الإفريقي وحوض البحر الأبيض المتوسط قديما وحديثا حيث كانت ولازالت المعبر للعديد من الفئات من العلماء والفقهاء والأدباء والتجار وأفواج الحج والرحالة سواء الأوربيين صوب وسط إفريقيا لغرض الاستكشاف والسيطرة أم العرب نحو الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج و المسافرين لأسباب سياسية أو تجارية أو البحث واكتشاف المجهول . والممر الرئيسي لتجارة دول ما وراء الصحراء عبر الموانى الليبية على طول امتداد الساحل إلى مختلف دول العالم وخاصة الدول الأوربية التي كانت على علاقات تجاريه معها وهولا الرحالة الذين نحن بصددهم كان لهم دورا في تطور الحركة الفكرية بليبيا.

حيث نجدهم عند عبورهم الأراضي الليبية يزورون العديد من المدن والأماكن التي تقع على طول امتداد الطريق الساحلي الذي يبدأ من الحدود الليبية التونسية غربا وحتى الحدود الليبية المصرية شرقا أو الواقعة على طول الطريق الصحراوي حتى الحدود المصرية الليبية شرقا ويقضون أياما وأسابيع بها ويلتقون، مع أهلها ومع طلاب العلم ورجال الفقه والعلم والأدب ويتبادلون الآراء والأفكار معهم وفى بعض الأحيان تكون مستقرا للبعض منهم مما كان له أثر كبير على الأوضاع الفكرية والعلمية بليبيا (البرغوثي،د:ت،ص300-301) وتنقسم تلك ألمده إلى فترتين الأولى فترة حكم الأسرة القرمانليه1711م- 1835م والثانية الحكم العثماني الثاني،1835م-1911م وقد تميزت الفترتان بالفوضى السياسية والفتن والثورات والانتفاضات إلى جانب الأوضاع الاقتصادية السيئة والمتمثلة في انتشار القحط والفقر والجهل والأوبئة مما كان له الأثر الكبير على الحياة الفكرية حيث هاجر العديد من السكان من علماء وفقهاء، وطلاب علم إلى مناطق بعيدة.

وإلى خارج البلاد بحثاً عن العلم والمعرفة والعيش الكريم والاستقرار الذي فقدوه (بن إسماعيل،د:ت، ص224- 225).

* جامعة الزاوية، كلية الآداب زوارة.

ولم تقتصر هذه الحالة على ليبيا فقط بل شملت معظم الولايات العثمانية ومرد هذا للسياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية في ولاياتها المتمثلة في سياسة العزلة التي كانت تفرضها وذلك بمنع أي اتصال حضاري أو فكري أو قومي إلى ولاياتها العربية خوفاً من نمو الروح القومية لدى العرب حتى لا يدفعهم هذا التواصل إلى الثورة والمطالبة بالاستقلال عن جسم الدولة العثمانية مما خلف اثأرا سلبية على رجال العلم من طلاب وفقهاء وعلماء حيث كانوا يعيشون في جمود دون أي تطور بسبب السياسة والأساليب التي اتبعتها الدولة العثمانية في ولاياتها التي ينفذها ولاتها والذين لم يكن همهم إلا جمع الأموال بشتى الوسائل وفرض السيطرة العثمانية بمختلف الطرق (التليسي،1985، ص116).

حيث اتخذت أبشع الأساليب تجاه أولئك الفقهاء والعلماء وطلاب العلم متمثله في مطاردة العديد منهم وملاحقتهم وحتى التخلص منهم وترك الأوضاع الثقافية تعانى الجمود والتخلف فلم يقوموا بأي دعم لأهل العلم من فقهاء وعلماء وأدباء والتحاور معهم ومعرفة أرائهم وأفكارهم كذلك الأولياء لم يسلموا هم أيضاً من هذه السياسة بسبب مواقفهم الوطنية الداعية إلى التخلص من الوجود العثماني الجاثم فوق الأرض الليبية وعلى الرغم من تلك الحالة فقد ظهرا لعديد من المصلحين والمفكرين والعلماء والأدباء والفقهاء يطالبون بالنهوض بالحياة الفكرية من أجل إصلاح حال الدولة العثمانية المنهارة ومواكبة التطور الذي تشهد أوروبا(رأفت،1974، ص378).

وقد أشار العديد من الرحالة العرب للحركة الفكرية بليبيا من خلال شهادات قدموها عند زيارتهم للمدن الليبية فهذا الرحالة ابن ناصر يقدم لنا صوره عن أوضاع طرابلس الفكرية خلال تلك الفترة عند مروره بها قاصداً الحج عام 1709م ويبين من أين أخذت طرابلس العلم بقوله: (طرابلس اكتسبت العلم من باب هوارة وزناته وهما بابان من أبواب البلد نسباً إلى من نزل بهما أول الزمان إلا أنه استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد إلى طرابلس يدخل من البابين من المشرق أو من المغرب وكان له اعتناء بلقاء الوفود والقيام بإضافتهم) (خشيم، 1985، ص34).

من جانب آخر أشار إلى وجود العديد من العلماء والفقهاء بطرابلس خلال تلك الفترة بقوله: (إن الشيخ سيدي الصيد قد أخذ الطريق عن سيدي محمد بن عيسى بن محمد لتلمساني المشهور بأبي معزة وأخذ عن الوالي الكبير والعلم الشهير سيدي أبي عمر القطني المراكشي) (خشيم، 1985، ص34).

أما الرحالة الورثلاني فقد تطرق للحياة الفكرية مثل غيره من الرحالة غير أنه في العديد من شهاداته كانت تكرار لما ذكره الرحالة قبله وخاصة من ابن ناصر والعياشي وذلك عند مرورهم

بالا راضى الليبية وهذا الورثيلانى يقدم شهادة ،عند مرور بالا راضى الليبية عام 1667م يشير فيها إلى ازدهار الحياة الفكرية بطرابلس بقوله: (ودعنا من في المدينة من العلماء) (الورثلانى، د:ت، ص171-172).

أكد الورثلانى على ازدهار طرابلس بالعلم والعلماء كما أكد على وجود العلم والعلماء حتى في ضواحي طرابلس منها تاجوراء وزليتن وزنزور بقوله: (لقينا جماعة من فضلاء تاجوراء كطلبة الشيخ سيدي محمد بن النعاس وبعض أولاده وأولاد أخيه وكذا أهل الفضل من تلك الفترة من الفقراء والمرابطين والعلماء والصلحاء ومن فيه نسبه من النسب وخرج معنا أكثر أهلها من العلماء والطلبة والفقراء وأهل السنة وبعض رؤوس الدولة والأكثر من العامة وأعيان البلد من باب المدينة من أهل المحبة) (الورثلانى،د:ت، ص171-172).

وفى زليتن مليئة بالعلماء والفقهاء بقوله: (وفي هذه البلدة زليتن فضلاء وصلحاء وعلماء وفي الرجعة اجتمعنا مع علماء الوقت الحاضر كالفاضل الكامل الأديب الفقيه سيدي سالم وإخوانه وطلبته وقد غمر رفاقه بالتدريس العلم نحواً وفقهاً واجتمعنا مع فضلاء تلك البلدة كمشارك في العلوم سيدي إبراهيم نجل الشيخ سالم فإن له اشتغال بالتدريس نفعه الله ، ووجدنا الفاضل الكامل العالم العلامة الفقيه الفهامة سيدي محمد أبن **عامر مع الأخ** في الله المحب من أجله إبراهيم الشريف ومن شرفاء مصراته ينتظرونه نحو اليومين) (الورثلانى،د:ت، ص171-172).

كما أشار في شهادة أخرى إلى أن الحركة الفكرية في طرابلس كانت مقصورة في أماكن معينة وذلك في بعض المساجد والزوايا والمعاهد الدينية وخاصة في الزاوية الغربية وجنزور بزاوية عورة بقوله (جنزور فيها أفاضل العلماء وعباداً وزهاداً) (الورثلاني، د:ت، ص137) .

وقال أيضاً:(من اجتمعنا معه من الفقهاء القاضي والفقيه لأجل سيدي عمر السوداني والشيخ الكيلاني وأصحابهما وأصحاب الاجتهاد في الأمور كلها سيدي حسن السعداوي بلغه الله غايته الأماني) (الورثلاني، د:ت ، ص142).

وأشار أيضاً إلى عدد من الفقهاء بطرابلس بقوله: (ومن الفقهاء سيدي عبد النور فهو فقيه فاضل عالم وأولاد الشيخ سيدي الصيد الولي الصالح وأولاده سيدي عبد اللطيف وسيدي الصيد وولده والسيد سيدي والشيخ سيدي محمد بن سعيد وأولاد المرغني وهم من أهل الفضل في الهنشير والساحل والمنشية) (الورثلاني، د:ت ، ص142) .

كما أشار الورثلاني إلى أكابر العلماء خلال تلك الفترة بقوله (وذهبنا لزيارة سيدي أحمد بن أحمد بن مسهل وقد استعفي الفتوى في آخر عمره وتبتل للعبادة وتدريس العلم وملازمة كتب الوعظ ، والتذكير له مشاركة في العلوم وملازمة التدريس وله سمة حسنة وحالة مرضية) (الورثلاني، د:ت، ص 128-129) .

كما تحدث عن كبار العلماء الذين التقاء بهم بقوله: (ثم لحقنا الركب نازلين على أطراف البلد فأتى إلينا جمع من طلبة العلم كالعلامة الفقية ولد الشيخ سيدي سالم ومعه فضلاء وعلماء ومن اجتمع من علماء طرابلس في النحو والتصوف وشرحه وحواشيه كالأمنية وشرحها وكذلك يقل معهم المختصر أما التوحيد فقليل الوجود فلا تجد من يحقق من مصر إلى وطننا، ونزلنا مجلسنا بوجود الفاضل الكامل الشيخ محمد العربي الفرجاني رفع الله أثره وأدام نعمته ،وقد اجتمعنا بالعالم النوراني سيدي محمد الكلابي) والسيد الجليل الشيخ محمد السوداني كان الله له دنيا وديناً بمنه وكرمه فعلماؤها كثيرون) (الورثلانى،د:ت، ص 128-129).

كما أورد شهادة بين فيها العلوم التي توجد بطرابلس منها النحو والآداب بقوله (خرجنا نواحي المنشية فوجدنا طائفة من الجيش التركي والموسيقى تصحبه بتلك النغمات السالبة للعقول وكان قضا بعض من له إلماماً بالأدب فتوجهت في الحسن إلى زاوية الشيخ أحمد مختار شيخ مشايخ السنوسية وقد بلغناه قدومنا قبل أن نأتيه وقد وجدناه يقرأ في كفاية الطلاب للشيخ الصالح المشهور عبد الله بن زيد القيرواني بالزاوية فلم تم درسه أقبل علينا وباشر قواده هو وجمع كبار الطريقة السنوسية وثبت تلك البينة بالزاوية مكرماً) (الورثلانى،د:ت، ص130-131) .

أما المنالي* فقد أشار هو الآخر من خلال شهادة أوردها إلى وجود بعض العلماء بطرابلس بقوله (ولما زرنا أبا شعيفة قصدنا نحو الإمام زروق فإذا بأخينا سيدي محمد مقيل جاء لملاقاتنا مع الأحبة سيدي محمد بن صالح وابن أخي سيدي محمد ابن منصور وسيدي محمد الزعفراني مع جماعة من إخواننا وأولاد ابن غلبون فالله ينفعهم ويرفعهم) (خشيم،1985، ص80) .

وفي إقليم برقة وبالتحديد في الجغبوب أورد ألحشائشي شهادة أكد فيها ازدهار الحياة الفكرية في الإقليم ووجود العديد من العلماء والفقهاء بقوله:(ومن أدباء هذه البلد من يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر الرقيق, ومن علمائه البحر الزاخر العلامة سيدي أحمد المربض كبيرهم وقدوتهم, يقال إن هذا الرجل يحفظ ما يقرب من عشرين ألف حديث ومنهم سيدي الفالح أديب زمانه وعالم عصره كان في حدود سنة 1894م ضيفاً كريماً عند أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد , ومنهم الشيخ سيدي وأصله من بلدة صفاقس, ومنهم سيدي أحمد السني عالم جليل وأصله من المغرب

وهو بمثابة وزير سيدي محمد المهدي شيخ الزاوية وصاحب مشورة والعلامة الكبير الحافظ الشيخ سيدي الريفي والشيخ سيدي يوسف أديب عصره وسيدي محمد البسكري وأصله بسكره وسيدي محمد التواتي أصل توات) (الحشائشى،د:ت، ص151).

كما قدم شهادة أخرى أكد على ما أشار إليه بقوله (وصارت جغبوب مناخ والعلوم ومنبع القرآن العظيم وموقعها في هضاب مع انخفاض وأرضها صلبة وبها بعض البقول الغلال وغالباً يكون تمراً غير جيد) (الحشائشى،د:ت ، ص152).

كما أكد على أن الجغبوب تعتبر قبلة للعلم والعلماء في تلك الفترة وذلك من خلال ما يوجد بها من كتب ثمينة ونادرة بقوله (أما الكتب الموجودة بخزانتها فقد بلغت على الثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغيرها ولا يطبع كتاب في العالم باللغة العربية إلا ويبحثون عنه يظفرون به, فيوجد عندهم ديوان العلامة الشاعر الشيخ سيدي محمد قايادر الشريف السنوسي وتاريخ الشاعر الأديب الشيخ سيدي محمد الباجي المسعودي التونسي) (الحشائشى،د:ت، ص152) .

كما تحدث عن طرابلس عند مروره بها في أواخر القرن التاسع عشرة بقوله: (أن هذه المدينة اشتهرت بأكابر العلماء الأمة المحمدية كالفقيه علي بن الحسن بن موسى بن معر الهواري الطرابلسي) (الحشائشى،د:ت، ص130) .

أما أبو الطيب الفاسي فقد أورد هو الآخر شهادة أكد فيها على وجود العلم والعلماء في ولاية طرابلس بقوله (ومنهم الشيخ أبو عبد الله المكني المشهور بالفتوى في تلك الأقطار ومنهم الفقيه النبيه الذي سلك فتأوي علمه الشيخ أبو عبد الله محمد أبن مقيل ومنهم الفقيه المشارك في أنواع المقولات والشيخ أبو العباس أحمد بن الصغير ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد كان خطيب بجامع الترك الأعظم وقد صلينا معه الجمعة الثانية) (جحيدر ،د:ت، ص87).

كما أكد أبو الطيب الفاسي على وجود العديد من طلاب العلم والراغبين فيه ومعرفة مختلف العلوم بقوله (ورد علينا جماعة من طلبة البلد وبالقوافي الإكرام جزآهم الله تعالى جزاء الكرام وسألوا عن مسائل علمية) (جحيدر ،د:ت، ص87) .

إن هذه الشهادة التي قدمها أبو الطيب الفاسي تعني حسب رأينا الرغبة الملحة لدى طلبة العلم على معرفة المسائل المختلفة, كما أن طلب المعرفة من قبل الطلبة كان فرصة لهم لأخذ العلم من علماء قادمين من المغرب قاصدين الحج, فقد لا تكون لهؤلاء الفرصة في الالتقاء بهؤلاء العلماء الذين نزلوا بهم، ونشير إلى أن أبو الطيب قد قضى فترة طويلة في طرابلس تقارب العشرين يوماً

مما مكنه من الالتقاء بعلماء طرابلس وفقهائها, وقد أورد شهادة تؤكد ذلك بقوله: (ولقينا الرجل الصالح العالم أبو عبد الله سيدي محمد المعزي لقيته بداره بالمنشية مع محبنا الفقيه أبي العباس أحمد القزوي وصلينا معه العصر في مسجده الذي بقرب داره وحدثنا بفوائد علمية وله يد في العلوم ولاسيما التصوف وتبركنا بملاقاة الرجل الصالح أبي عبد الله محمد بن مساهل الطرابلسي الدار) (جحيدر،د:ت ص 124) .

ويشير الرحالة مؤيد العظم إلى انتعاش الحياة الثقافية والتعليمية في واحة الكفرة البعيدة عن طرابلس مركز السلطة العثمانية وإن دل على شيء فإنما يدل على انتشار التعليم بالولاية بدليل قوله:(خرج إلى استقبالنا المشايخ والطلبة منهم سيدي محمد البسكري أحد تلاميذ السيد السنوسي وقد قام السيد البسكري ومعه الطلبة والخدم إلى مكان إقامة القافلة) (عبد العظيم،1998، ص108).

وفي الطرف الغربي لطرابلس أشار ابن ناصر إلى مدينة الزاوية كأحد المراكز العلمية خلال تلك الفترة بقوله (ومدينة الزاوية هي الأخرى بها علماء وفقهاء في تلك الفترة بدليل قول ابن ناصر (وأضحينا بالزاوية الغربية بلدة نخيل وفواكه وأشجار وعمارة وتعرض لنا من جماعة المحب سيدي محمد المكني ثم تلقانا أهل الزاوية أفواجاً أفواجاً نسأل الله أن يعاملهم عنا بفضله وسير على الجميع سده المنيع) (بن عثمان،د:ت، ص38).

إن تلك الشهادات التي قدمها جملةٌ من الرحالة العرب قد أوضحت صورة الحياة الفكرية في ولاية طرابلس الغرب خلال تلك الفترة والتي كانت متمثله في المسجد والزاوية والكتاتيب والمدارس الدينية.

ومن هنا يمكن إن نستنتج الآتي:

أولا- إن الحركة الفكرية في ولاية طرابلس قد شهدت انتعاشا خلال تلك الفترة بالرغم من الأوضاع المنهارة وفي مختلف جوانبها.

ثانيا- إن الحركة الفكرية بولاية طرابلس لم يقم بها ولاتها وإنما قام بها الأهالي وبإمكانياتهم المتواضعة دون أي مساعده من ولاتها.

ثالثا- إن اختلاف شهادات الرحالة يرجع في نضرى إلى، أسباب عده منها:

ا- إن مدة بقاء الرحالة في الأماكن والمدن لم يكن طويلا وبالتالي لم يتمكنوا من معرفة الحالة الفكرية بدقة حيث يحتاج ذلك إلى وقت.

ب- قد تكون تلك الأماكن التي زارها الرحالة لا توجد بها مؤسسات فكريه من مسجد أو زاوية وبالتالي لم يصادفوا عند زيارتهم لها أي من رجال العلم.

ج- إن علاقة الرحالة مع الأهالي انعكس على شهاداتهم التي أوردوها.

رابعا- إن معظم الرحالة من العلماء والفقهاء وطلاب العلم مما كان لها الأثر في معرفة الكثير من التفاصيل عن الحياة الفكرية.

خامسا- إن الولاة العثمانيين الذين تولوا أمر طرابلس قد ركزوا جل همهم لجمع الأموال وبأي وسيلة دون النضر إلى، الجوانب الأخرى وخاصة الفكرية منها.

سادسا- إن الأراضي الليبية كانت مكان التقاء للعديد من العلماء من الشرق العربي والمغرب العربي مما أدى إلى انتقال مختلف العلوم والمعارف بين أبناء الوطن.

سابعا- تعد مدينة زليتن احد المراكز العلمية خلال تلك الفترة .

ثامنا- إن مدينة جنزور من ابرز المراكز العلمية بضواحي طرابلس حيث ضمت العديد من الزوايا الدينية أهمها زاوية عمورة وزاوية العريفى مما جعلها تلعب دورا مميزا في نشر العلم والمعرفة وخاصة في تحفيظ القران الكريم والعلوم الشرعية.

تاسعا- تعتبر مدينة تاجوراء احد ضواحي طرابلس هي الأخرى تزخر بالعلم والعلماء.

عاشرا- تعد مدينة الزاوية من المراكز العلمية حيث تظم العديد من الزوايا الدينية التي لعبت دورا في الحياة الفكرية بليبيا خلال تلك الفترة.

المصادر والمراجع:

1- الحسن الورثيلاني ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ،تحقيق محمد شنيب.

2- الحشائش محمد بن عثمان الرحلة جلاء الكرب عن طرابلس الغرب 1885 م دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع لبنان.

3- خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة ، طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب ، الدار العربية للكتاب الطبعة الأولى.

4- خير الدين الزر كلي الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين الجزء 4 ط6 لسنة 1984 دار العلم للملايين بيروت لبنان.

5- صلاح الدين السعدي ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية دار الكتب الوطنية ، الطبعة الأولى 1998م .

6- عبد الكريم رأفت، العرب والعثمانيون في أفريقيا الشمالية 1516- 1916، دمشق، مكتبة طرابلس.

7- عبد اللطيف البرغوتي تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح العربي حتى بداية العهد العثماني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ ، منشورات الجامعة الليبية .

8- علي فهمي خشيم ، الحاجية في ثلاث رحلات في الأراضي الليبية ، رحلة ابن ناصر ، رحلة المنالى- رحلة الفاسى. الطبعة الأولى 1394 / 1974 ، دار مكتبة الفكر للنشر والتوزيع ،ط .الثانية ، 1985 ، ليبيا – تونس .

9- عمار جحيدر، آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث ، رحلة أبو الطيب الفاسي ، الدار العربية للكتاب .

10-عمر علي بن إسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1795- 1835، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، وثيقة رقم 512.

11-مؤيد عبد العظيم ، رحلة الصحراء الكبرى بأفريقيا ، ترجمة عبد الكريم الوافي ، مراجعة

12-محمد بن عثمان ألحشائشي، الرحلة جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، 1912، دار لبنان للطباعة والنشر.

13-محمد حرب عبد المجيد، المذكرات للسلطان عبد الحميد الثاني، مذكرات سياسية.

14-محمد ضياء الدين الريس، تاريخ الأمة العربية، عصر الانبعاث، مكتبة الشباب، ط2، لسنة 1965م.

15-محمد عبد المنعم خفاجي من ذخائر الكتب العربية رحلة العياشي مجلة الهلال لسنة 93 ديسمبر لسنة1984 8 ربيع الأول لسنة 1405 هـ.